

١ - محاورات أفلاطون

معذرة سقراط

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

مترجم

كان أفلاطون فيلسوفاً فناناً على بعد ما بين الفن والفلسفة ، فقد دون آراءه كلها في أسلوب الحوار الذي بلغ من الدقة والجمال حداً وضعه في أسمى مراتب الفن . ونحن إذ نتقدم الى القراء بهذه الترجمة لمحاوراته ، إنما نلتبس المعفو عما قد تصاب به تلك الآيات البيّنات من تشويه . على أن القارىء إذا فقد جمال الأسلوب فلن تضيق منه باذن الله دقة المعنى وأمانة النقل

وهذا الحوار الذي ترجمه لك اليوم ، كتبه أفلاطون ليصور به دفاع سقراط عن نفسه يوم محاكمته بتهمة الآحاد وإفساد الشباب . ولنا ندرى الى أى حد تطابق هذه الصورة الأفلاطونية

وعملًا روائياً حقيقياً أصبح الكاتب يضع روايته حراً من كل قيد ، ثم يدفعها الى اللحن فيختار لها فكرة موسيقية تقوى التعبير عن الغرض . وهم اليوم يميلون الى تقليل الحوار وتكثير الغناء ، ورد هذا النوع الى شكل لا يكون معه إلا درامة غنائية وملهاة غنائية لا يدخل فيها ما ليس منها حتى لا يقول فيه القائلون اليوم إنه نوع مزيف ، وحتى لا يصفه (نيوفيل جوتيه) « بأنه سفيح قبيح ، قد خلط بين وسيلتين متباينتين من وسائل التعبير ، فجعل المثلين يسيئون الغناء بحجة أنهم ممثلون ، والمثلين يسيئون التمثيل بحجة أنهم مغنون » .

على أنه بالرغم من هذا النقد الوجيه يستحق العناية والتأييد ، لأنه سبب وأصل بين ذوق العامة وذوق الخاصة ، ودرج صاعد بالجمهور الى الفن الموسيقى فيرفقه من حضيض (الثودفيل) الى أوج (الأبرا).

وهنا نقف القلم معتقدين أن فيما بسطناه من قواعد الفن الدرامي بلاغاً للكاتب الناشئ وسدّاً لنقص البيان العربي في هذا الباب

الزيات :

الحقيقة الواقعة . هل احتفظ أفلاطون بألفاظ سقراط نفسها أو ما يقرب منها ؟ أم أنشأها لإنشاء ليعبر بها عما كان يجب أن يكون من سقراط في دفاعه ؟ أم هي قصة جمعت بين الطرفين ، فأثبتت ما قيل وأضافت اليه ما كان يجب أن يقال ؟ وسواء أكانت هذه أم هذه أم تلك ، فهي على كل حال تصور روح سقراط في الحديث تصويراً دقيقاً ، وتحلل نزعته تحليلًا بارعاً ، فلا يسع القارىء وهو يقرأ هذا الحوار الذي ديجته راعة أفلاطون إلا أن يعتقد اعتقاداً

جزماً بأنه إنما يتلو عبارة تحركت بها نفس سقراط وجرى بها لسانه ؛ فشخصيته بارزة في كل سطر من سطره روزاً لا يخطئه النظر ، فأنت ترى لمحات من التهمك اللاذع الذي امتاز به سقراط في حديثه ، وأنت تلاحظ روح التحدى جلية واضحة ، والتحدى طابع معروف في شخصية سقراط . وسنرى كذلك في هذا الحوار تفككاً فلا تتصل أجزاءه بصلة من منطق قوى ، فكأنما أراد أفلاطون بهذا أن يكون أميناً في الصورة التي يقدمها عن سقراط ؛ فسقراط لم يكن في حياته بمعنى بمنطق الحديث . فهو إذا بدأ حواراً مع آخر لا يلبث أن يشدبه باستطراده من ناحية ، وبالأستلة العرضية التي يطرحها مناقشوه أثناء الحديث من ناحية أخرى ، فيخرج الكلام آخر الأمر ، وليس فيه وحدة تربط أوله بآخره

وقد تمعد أفلاطون في هذا الحوار أن يسوق إلى القارىء أبرز ما حدث لسقراط في حياته ليكون عنه فكرة متصلة ، وقد كان أفلاطون في ذلك قديراً ماهراً ، حتى لا يكاد يشر القارىء أن تلك الحوادث أضيفت إضافة مدبرة ، بل جاءت عفواً كما اقتضى منطق الحديث

يبدأ سقراط في هذا الدفاع ، أو إن شئت تعبيراً دقيقاً نقل يبدأ أفلاطون في دفاعه عن سقراط ، بأن قسم التهمين الى قسمين :

الرأى العام من ناحية ، وطائفة من الأشخاص الناهين من جهة أخرى ؛ ثم يلخص للقضاة نقط الاهتمام ، وأخذ يفندهما واحدة فواحدة . وعلى الرغم من هذا فقد حكم عليه بالموت . ولما طلب اليه أن يقترح حكماً - كما جرت بذلك عادة القضاء الأثيني - لتقف المحكمة موقفاً وسطاً بين الحكيم ، أجاب في تهكم لاذع وحكمة نادرة . وانتهى الأمر وقضى عليه بالموت

نص المزمع

لست أدري أيها الأثنيون كيف وقعت من نفوسكم خطبٌ
 متهمي، أما أنا فقد أحسست لكلماتهم الخلافة أترأ قوياً أنسيت
 معه نفسي، ولأنهم لم يقولوا من الحق شيئاً. ولشد ما دهشت
 إذ ساقوا في غمر باطلهم نذيراً لكم أن تكونوا على حذر فلا
 تخدعكم قوة فصاحتى. يا خجلتهم بما زعمون! فإذا نبئتُ بنبت
 شفة نهضت لكم دليلاً على عي لساني وافتضح أمرهم، وأنهم
 بذلك عالون، ولكنهم يمارون ولا يخجلون. أم تراهم يظنون
 الفصاحة على قوة الحق؟ إذن لأشهدت أنى مصقع بليغ. ألا
 ما أبعد الفرق بيني وبينهم! فهم كما أنباكم لم ينطقوا كلمة صدق
 ولم يقولوا الا كذباً، أما أنا فخذوا الحق منى صراحة، ولن
 أصوغها عبارة منمقة كما فعلوا، ولكنى سأسوق الحديث اليكم
 عفواً ساعته، ولست أشك في أنه الحق. فلن أقف يوماً بينكم
 أيها الأثنيون موقف الخطيب ما دمت حياً، فلا يرجن الآن
 أحد منى خطاباً، ولعلى أظفر منكم بهذا الفضل: إن جاءت في
 في دفاعي كلمات قلها من قبل، وسمعتها بعضكم في الطريق أو عند
 موائد الصيارفة أو في أى مكان آخر، فلا تدهشوا ولا تقاطعوا
 الحديث، لأننى أقف — وقد نيفت على السبعين عاماً — للمرة
 الأولى في ساحة القانون، فلم آلف هذا المكان، ولم أتعود تقاليده
 وطرائقه، فانظروا الى نظركم الى الغريب تلتمس له العذرة لو
 جرى لسانه بلغة قومه ولهجة وطنه. وما أحسبني بذلك أطلب
 شططاً، فدعكم من عبارتى وقيحها، وانظروا في عدالة القضية
 وحدها، وإذا حكم منكم قاض فليحكم بالمدل، وإذا نطق منكم
 فلينطق بالحق

ولأبدأ أولاً برد اتهام الطائفة الأولى من المدعين^(١)، ثم
 أستطرد الى دعوى الفريق الثانى؛ فلقد اتهمنى من قبل نفر كثير،
 ولبثت دعواهم الباطلة تتردد أعواماً طويلاً، ولانى لأختبأ أكثر
 من هذا الرجل (أينس) وعصبته، وإن كيدهم لعظيم، ولكن
 أولئك الذين نهضوا اذ كنتم أطفالاً فلكوا ألبابكم بأباطيلهم لأشد
 من هؤلاء خطراً، فهم يحدوثونكم عنى يسمى سقراط أنه حكيم
 يسبح بفكره في السماء، ثم يهوى به الى الغبراء، وأنه يخلع على
 الباطل رداء الحق. أولئك هم من أخشى من الأعداء، فقد

(١) يقصد بها الرأى العام

أذاعوا في الناس هذا الحديث، وما أسرع ما يظن الدهماء أن
 هذا الضرب من المفكرين كافر بالآلهة. كثيرون هم أولئك
 المدعون، ودعواهم قديمة العهد، ونشروها حين كنتم في سن
 الطفولة أو الشباب ألين انظباعاً. ولم يكادوا ينطقون بالدعوى
 حتى انطلقت تحمل عني في ذيلها السوء دون أن تجد لها مفنداً.
 وأهول من ذلك كله أن لبثت أسماءهم مجهولة لا أعلمها لولا ذلك
 الشاعر المازل^(١) الذى ساقته الظروف. ولأنه لمن السير بأن
 أحدث الى أشخاص هؤلاء الهجائين الذين نفذوا الى نفوسكم
 بما يحملون من ضغينة وحقد، صدر فيها بعضهم عن عقيدة، ثم
 ألقوا بذورها في قلوب الآخرين؛ فلا أستطيع أن أدعوم الى
 هذا المكان لأستجيبهم، فأنا ان دافعت الآن فأنما أدافع أشباحاً،
 وأستجيب حيث لا يجيب. ولانى لأرجو أن تقبلوا ما فرضته
 لكم من قبل بأن الأعداء صنفان: طائفة حديثة العهد وأخرى
 قديمة، وأحسبكم ترون صواب رأى في أن أبداً بالرد على هذه
 الطائفة الأخيرة، فدعواها أقدم عهداً وأكثر تردداً

وبعد، فما كم دفاعى، ولعلى أستطيع في هذه البرهة القصيرة
 التى تفضلتم بها على أن أمحوشائمة السوء التى قرت عني في أذهانكم
 طوال هذا الزمن، وعسى أن أصيب توفيقاً إن كان في التوفيق
 خير لى ولكم، ولعل كلماتى تصادف منكم قبولاً حسناً. فأنا
 عليم أنى مقدم على أمر عسير، وانى لأقدر مهمتى حق قدرها،
 فليقض الله بما يزيد. وما أبداً دفاعى طوعاً للقانون

واستهل الحديث بهذا السؤال: أى ذنب جنيت حتى حامت
 حولى الشبهات فاجترأ مليتس أن يرفع أمرى للقضاء؟ ماذا يقول
 عني دعاة السوء؟ ها كم خلاصة ما يدعون: «قد أساء سقراط
 صنفاً، وهو طمعة يصعد البصر الى السماء وما يحوى، ثم ينفذ به
 تحت أطباق الترى، وهو يلبس الباطل ثوب الحق، ثم إنه يبت
 تعاليمه في الناس» تلك هى جريرتى، وقد شهدتم بأنفسكم في ملهامة
 أرسطوفان كيف اصطنع شخصاً أسماه سقراط جعله يجول قائلاً إنه
 يستطيع أن يسير في الهواء، وأخذ يلقو في موضوعات لا أزمع
 أنى أعرف عنها كثيراً ولا قليلاً — لست أقصد بهذا أن أسىء
 الى أحد من طلاب الفلسفة الطبيعية — ولكن شدة ما يسوؤنى

(١) يقصد به أرسطوفان الذى مثل بسقراط في روايته «السحاب»

أن يتهمني بها مليتس . أيها الأنثيون ! الحق الصراح أني لا أتصل بتلك الدراسة بسبب من الأسباب ، ويشهد بصدق قولي كثير من الحضور ، فاليهم أحكم . انطقوا إذن يا من سمعتم حديثي وأنبتوا عني حيرانكم ، هل تحدثت في مثل هذه الأبحاث كثيراً أو قليلاً ؟ أنصتوا إلى جوابهم لتقطعوا بصدق مما يقررون

أما القول بأن معلم أتقاضى عن التعليم أجراً فباطل ليس فيه من الحق أكثر مما في سابقه ، على أنني أجد العلم المأجور إن كان معلماً قديراً . فهؤلاء جورجياس الليونتي (Gorgias of Leontium) وبروديكوس الكيوسي (Prodicus of Ceos) وهيباس الاليزي (Hippias of Elis) يطوفون بالمدن يحملون الشباب على ترك بني وطنهم الذين يعلمونهم ابتغاء وجه الله ليسموا بهم ، فلا يؤجرونهم وكفى ، بل يمدون لهم ذلك الفضل العظيم . ولقد أتاني نبأ فيلسوف من بارا يقيم في أثينا ، حدثني عنه رجل صادفته ، قد بذل للسوفسطائيين مالاً طائلاً ، هو كاليب بن هونيكوس . ولما أتاني أن له ابنين سألته : لو كان ابنك يا كاليب حمارين أو بقرتين لما شق عليك أن يجدهما مدرّباً ، فما أهون أن تستخدم مدرّب الخيول أو فلاحاً يقومهما ويبلغ بهما حد الكمال في حدود فضيلتهما ، ولكنهما إنسانان من البشر ، فمن ذا فكرت أن يكون لهما مؤدّباً ؟ أعت من يدرك فضيلة الإنسان وسياسة البشر ؟ حدثني فلا بد أن تكون قد تدبرت الأمر ما دمت والدناً . فأجاب : « نعم وجدت . فسألته : من هو ذا وأين موطنه وكم يؤجر ؟ فأجاب هو أقيس الباري وأجره خمسة دراهم » فقلت في نفسي : « أتم بك يا أقيس إن كنت تملك هذه الحكمة حقاً ، وتعلمها مثل هذا الأجر الضئيل ، فلو كانت لثي كرهيت وأخذت الفرور ، ولكنني بحق أيها الأنثيون — لا أعلم من تلك الحكمة شيئاً »

رب سائل منكم يقول : « وكيف شاعت عنك تلك التهمة يا سقراط إن لم تكن قد أتيت أمراً إذا ؟ فلو كنت فرداً كسائر الناس لما ذاع لك صوت ولا دار عنك حديث . أنبتنا إذن بعلة هذا إذ يؤلنا أن نحكم في غير صالحك » وإني لأحسب هذا تحدياً رقيقاً ، وسأحاول أن أوضح لكم لم دعيت بالحكيم ، ومن أين جاءتني الأحذوثة السيئة ، فأرجو أن تصتوا لقولي ، ولو أن بعضكم سيظن بي الهزل ، ولكنني أعترف أنني لن أقول إلا الحق

خالصاً . أيها الأنثيون ! إن لدى ضرباً معيناً من ضروب الحكمة ، كان مصدر ما شاع من أمري ، فان سألتوني عن هذه الحكمة ما هي ؟ أجيبت أنها في مقدور البشر ، وإلى هذا الحد فأنا حكيم . أما أولئك الذين كنت أتحدث عنهم فحكمتهم معجزة فوق مستوى البشر ، لا أستطيع أن أصفها لأنني لا أملكها ، ومن ظن أنها لدى فقد ظن باطلاً ، وكان أشد ما يكون بعداً عن حقيقتي . أيها الأنثيون ! أرجو ألا تقاطعوني ولو بالث في القول ، فلست قائل هذا الذي أرويه لكم ، ولكني سأنيب عنّي شاهداً جديراً بالثقة ، ليحدثكم عن حكمتي — فسيتشكّم هل أملك من الحكمة شيئاً ؟ وإن كنت أملك ، فأنوعها — وأعني بذلك الشاهد إنّه دلتني . إنكم ولا ريب تعرفون (شريفون) ، فهو صديق منذ عهد الصبا ، وهو صديقكم منذ ظاهركم على نقي من تقييم ثم عاد أدراجه معكم . كان شريفون كما تعلمون صادق الشعور في كل ما يعمل ، فقد ذهب إلى معبد دلتني وسأل الراعية في جراءة لتبته — وأعود فأرجو ألا تقاطعوني — سأل الراعية لتبته إن كان هناك من هو أحكم مني ، فأجبت النية أن ليس بين الرجال من يفضلني بحكمتي . لقد مات شريفون ، ولكن أخاه ، وهو في الحكمة بيننا ، يؤيد صدق ما أروي

وفيم أسوق اليكم هذا الخبر ؟ ذلك لأنني أريد أن أتقصي لكم علة ما ذاع عني من سوء الذكر . لما أتاني جواب الراعية ، قلت في نفسي : ماذا يعني الآلهة بهذا ؟ إنه لنز لم أفهم له معنى ؛ أنا أعلم أن ليس لدى من الحكمة كثير ولا قليل ، فإذا عساه يقصد بقوله إنني أحكم الناس ؟ ومع ذلك فهو آله يستحيل عليه الكذب ، لأن الكذب لا يستقيم مع طبيعته . ففكرت وأمنت في التفكير ، حتى انتهيت آخر الأمر إلى طريقة أحقق بها القول . اعترفت أن أبحث عن من يكون أحكم مني ، فان صادفته ، أخذت سمّي نحو الآلهة لأرد عليه ما زعم ، فأقول له : « هاك رجلاً أكثر مني حكمة ، وقد زعمت أني أحكم الناس » . لهذا قضت إلى رجل من الساسة — ولا حاجة بي إلى ذكر اسمه — فقد عرف بحكمتي ، وامتحنته فانهتت إلى النتيجة الآتية : لم أكد أبدأ معه الحديث حتى قرت في نفسي عقيدة لا تمنحني بأنه لم يكن حكماً حقاً ، على الرغم من شهادة الكثيرين له بالحكمة ، وعلى الرغم مما ظنه هو نفسه في حكمتي ، وقد جاوز به الفرور شهادة